القاضي أبو يوسف

أعـــلام القضـــاء

القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة

كان القاضي أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة، وهو صاحب أبي حنيفة ﷺ، كان فقيهاً عالماً حافظاً، سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء: المهدي وابنه الهادي ثم هارون الرشيد، وكان الرشيد يكرمه ويجله، وكان عنده حظياً مكيناً، وهو أول من دعي بقاضي القضاة، ويقال: إنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً، لا يتميز أحد عن أحد بلباسه. ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل.

ولد أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري في مدينة الكوفة سنة ١١٣هـ، وتطلع إلى العلم والدراسة فلم يجد خيرًا من مجلس الفقيه الكبير أبي حنيفة فتتلمذ على يديه، ودرس عنده أصول الدين والحديث والفقه.

ولصحبته لأبي حنيفة قصة يرويها لنا أبو يوسف فيقول: كنت أطلب الحديث والفقه عند أبي حنيفة، وأنا مقل (يعني قليل المال) رث الحال والهيئة، فجاءني أبي يومًا فانصرفت معه، فقال لي: يا بني، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة (أي لا تذهب إليه) فإن أبا حنيفة خبزه مشوي (يقصد أنه غني وقادر على أن يعيش عيشة كريمة) وأنت تحتاج إلى معاش (عمل حتى تنفق على نفسك ولا تنقطع للعلم)، فقصرت عن كثير من الطلب (أي طلب العلم) وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه؛ فقال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالناس وطاعة والدي، وجلست حتى

انصرف الناس، ثم دفع لي صرة وقال: استمتع بها.

فنظرت فإذا فيها مائة درهم وقال: الزم الحلقة وإذا أفرغت هذه (إذا أنفقتها) فأعلمني، فلزمت الحلقة، فلما قضيت مدة يسيرة، دفع إليَّ مائة أخرى، ثم كان يتعهدني (يرعاني) وما أعلمته بقلة قط ولا أخبرته بنفاد شيء، وكأنه يخبر بنفادها وظل كذلك حتى استغنيت[1].

ولم يكن لأبي حنيفة تلميذ في نجابة أبي يوسف وذكائه، فقد استمر في تلقي العلم حتى حفظ التفسير والحديث والمغازي وأيام العرب، وسار أبو يوسف على نهج أستاذه أبي حنيفة في الفقه، إلا أنه كانت له اجتهادات خاصة به، وألف كتبًا كثيرة أشهرها كتاب الخراج وهو رسالة في إدارة المال العام والقضاء، وقد قربه الخليفة هارون الرشيد إليه، وولاه القضاء، ومنحه لقب قاضي القضاة، وكان يستشيره في أمور الدين والدنيا.

وفي عام (١٨٢هـ) مات أبو يوسف وهو يقول: اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدًا، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ﷺ، وكلما أشكل عليَّ أمر جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، ومات الفقيه أبو يوسف، فحزن عليه الناس جميعًا؛ وقال صديقه أبو يعقوب الحريمي: اليوم مات الفقيه.. فرحم الله أبا يوسف وأسكنه فسيح جناته[2].

---

(١) تاريخ بغداد، ١٤: ٢٤٤.

(٢) التاريخ لابن معين: ٦٨٠، التاريخ الكبير: ٨ / ٣٩٧، التاريخ الصغير: ٢ / ٢٢٨، ٢٣٠، المعارف: ٤٩٩، المعرفة والتاريخ: ١ / ١٣٣، و٣ / ٤، الفهرست لابن النديم: ٢٠٣، الاستيعاب: ٥٨٤، الانتقاء: ١٧٢، تاريخ بغداد، ١٤ / ٢٤٢ - ٢٦٢، تاريخ جرجان للسهمي: ٤٤٤، ٤٤٥، طبقات الشيرازي: ١٣٤، وفيات الأعيان: ٦ / ٣٧٨ - ٣٩٠، تذكرة الحفاظ: ١ / ٢٩٢، ميزان الاعتدال: ٤ / ٣٩٧، العبر: ١ / ٢٨٤ - ٢٨٥، مرآة

وقد أثني عليه من عاصروه من العلماء والفقهاء فقد قال عُمَر بْن حفص بْن غياث: سمعت أبي يقول: كان الحجاج بْن أرطاة لا يملي علينا، وكان يعقوب أَبُو يوسف يسأله؛ فإذا قام الحجاج قام الناس إِلَى يعقوب فأملى عليهم عَن ظهر قلب قَالَ حفص: وكنت أنا لا أكتب إلا ما وقع في ألواحي.

وذكر أبو عمر ابن عبد البر صاحب كتاب " الاستيعاب " في كتابه الذي سماه كتاب " الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء " [1] أن أبا يوسف المذكور كان حافظاً وأنه كان يحضر المحدث ويحفظ خمسين ستين حديثاً، ثم يقوم فيمليها على الناس، وكان كثير الحديث. وقال محمد بن جرير الطبري: وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء.

وحَدَّثَ مُحَمَّد بْن حماد بْن المبارك المقري قال: سألت يحيى بْن معين عَن أبي يوسف فقال: حسن الحديث وليس له بحث.

وقال طلحة بن محمد بن جعفر: أبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل، وهو صاحب أبي حنيفة، وأفقه أهل عصره، ولم يتقدمه أحد في زمانه، وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث على أبي حنيفة في أقطار الأرض.

الجنان: ١ / ٣٨٢ - ٣٨٨، ألفية العراقي: ٢ / ١٦٣، النجوم الزاهرة: ٢ / ١٠٧، مفتاح السعادة: ٢ / ١٠٠ - ١٠٧، الجواهر المضية: ٢ / ٢٢٠، شذرات الذهب: ١ / ٢٩٨ - ٣٠١، أخبار القضاة: ٣ / ٢٥٤، طبقات الحنفية: ١٢ / ١، الفوائد البهية: ٢٢٥، هدية العارفين: ٢ / ٥٣٦، تاج التراجم: ٦٠، مناقب الإمام أبي حنيفة: ٢ / ١٤٣.

(١) الانتقاء: ١٧٢.

وقال عمار بن أبي مالك: ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى، ولكنه هو نشر قولهما وبث علمهما.

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة: مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه، فعاده أبو حنيفة ونحن معه، فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال: إن يمت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها، وأومأ إلى الأرض.

وقال أبو يوسف: سألني الأعمش عن مسألة، فأجبته فيها فقال لي: من أين لك هذا فقلت: من حديثك الذي حدثتنا أنت، ثم ذكرت له الحديث، فقال لي: يا يعقوب إني لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت تأويله حتى الآن.

وقال هلال بن يحيى: كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه، ولم يكن في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف.

قَالَ علي: وما أعلم أحداً بقي اليوم يعلم أن يوسف بْن أبي يوسف كان قاضياً أيام المهدي غيري، فلما استخلف موسى وقدم بغداد كان قاضيه أَبُو يوسف في جميع بغداد وعُمَر بْن حبيب في الشرقية ولم يزل يوسف قاضياً حتى مات، وكان أبويوسف يسافر مع الرشيد ويوسف يقضي بمدينة السلام. والرشيد ولى أبا يوسف قضاء القضاة.

وسمع أبو يعقوب الخريمي يوم مات أَبُو يوسف رجلاً يقول: اليوم مات الفقه، فقال:

يا ناعي الفقه إلَى أهله ::: أن مات يعقوب وما تدري

لم يمت الفقه ولكنه ::: حول من صدر إلى صدر
ألقاه يعقوب إلى يوسف ::: فزال من طيب إلى طهر
فهو مقيم فإذا ما نوى ::: حل وحل الفقه في قبر[1]

و كان أبو يوسف شديد الاحترام والتوقير لاستاذه أبو حنيفة ويدعو له يقول في دبر صلواته ويقول: اللهم اغفر لي ولوالدي ولأبي حنيفة.

وقال علي بن الخليل الكوفي، في أبي يوسف قصيدة منها:

دعوت له بشبوط ::: يرى بظهره حدبا
فقال: أما لجارك من ::: طعام يذهب السغبا
أصب لأخيك يربوعاً ::: وضبا واترك اللعبا
وقام إليه ساقينا ::: بكأس ينظم الحببا
معتقة مروقة ::: تسلى هم من شربا
فأمسكها براحته ::: فلما شمها قطبا
وإلا لا تسلسلها ::: و قال: أصب لنا حلبا
وأمسك أنفه عنها ::: وقام موليا هربا
يريد الشيح والقيصو ::: م كي يستوجب السبا
وقد أبصرته زمناً ::: يحب الظرف والأدبا
فصار تشبهاً بالقو ::: م جلفاً جافياً خشبا
إذا ذكر الثريد بكا ::: وأبدا الشوق والطربا
وليس ضميره في القلـ ::: ـب إلا التين والعنبا
يروح بنسبة المولى ::: وشيخ تدعى العربا
فلا هذا ولا هذا ::: ك يدركه إذا طلبا
أيرغب عن بني كسرى ::: وما عن مثلهم رغبا

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٥٨

جحـــــدت أبـــــاك نســـــبته ::: وترجـــــو أن تفيـــــد أبـــــا

وقال محمد بن سماعة: سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول:

اللهم إنك تعلم أني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ﷺ، وكل ما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه.

وأخبار أبي يوسف كثيرة، وأكثر الناس من العلماء على تفضيله وتعظيمه.

مواقف من حياته:

لو أن فيك موضع أدب لأوقعتك

قال بشار بن موسى الخفاف جاء بشر بن الوليد الكندي إلى القاضي أبي يوسف فقال له تنهاني عن الكلام وبشر المريسي وعلي الأحول وفلان يتكلمون قال وما يقولون قال يقولون الله في كل مكان فقال أبو يوسف علي بهم فانتهوا إليهم وقد قام بشر فجيء بعلي الأحول وبالآخر شيخ فقال أبو يوسف ونظر إلى الشيخ لو أن فيك موضع أدب لأوقعتك فأمر به إلى الحبس وضرب الأحول وطوف به [1].

أبو يوسف القاضي يأكل اللوزينج [2] بالفستق

(١) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العلو للعلي الغفار، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) اللوزينج من الحلوى يشبه القطائف يؤدم بدهن اللوز.

وحدثني أبي، قال: بلغني أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة، ليتعلم العلم، على فقر وشدة، وكانت أمه تحتال له فيما يتقوته يوماً بيوم، فطلب يوماً ما يأكل، فجاءته بغضارة [1] مغطاة، فكشفها، فإذا فيها دفاتر.

فقال: ما هذا؟.

فقالت: هذا الذي أنت مشتغل به نهارك أجمع، فكل منه.

فبكى، وبات جائعاً، وتأخر عن المجلس من الغد، حتى احتال فيما أكله، ثم مضى إلى أبي حنيفة، فسأله عن سبب تأخره، فصدقه.

فقال له: ألا عرفتني فكنت أمدك؟ ولا يجب أن تغتم، فإنه إن طال عمرك، فستأكل اللوزينج بالفستق.

قال: فلما خدمت الرشيد، واختصصت به، قدم بحضرته يوماً، جام فيه لوزينج بفستق، فدعاني إليه، فحين أكلت منه، ذكرت أبا حنيفة، فبكيت، وحمدت الله تعالى، فسألني الرشيد عن قصتي، فأخبرته[2].

فاردد البستان عليه

عَن يحيى بْن عَبْد الصمد قال: خوصم موسى أمير المؤمنين إِلَى أبي يوسف في بستانه، فكان الحكم في الظاهر لأمير المؤمنين وكان الأمر على خلاف ما يظهر من الحكم. فَقَالَ أمير المؤمنين: ما صنعتَ في الأمر الذي تتنازع إليك فِيْهِ؟ قال: خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق، فَقَالَ: موسى. وترى ذاك قال: قد كان ابن أبي ليلى يراه. قال: فاردد

(١) الغَضائر: جمع غَضارة وهي القَصْعة الكبيرة.
(٢) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ١٦١.

البستان عليه. وإنما احتال عليه أَبُو يوسف[1].

يا بني هَذَا الأعور سيد

قَالَ: وكان رجل من الزهاد يأتي مجلس أبي معشر فربما ذكر هَذَا من قول أبي يوسف فعابه وتكلم فيه. فحضر يوماً مجلس أبي معشر يوسف ابْن أبي يوسف وتكلم. قَالَ الشيخ قبل أن يجلس أَبُو معشر للحديث، ثم جلس أَبُو معشر فأعاد الشيخ ذكر أبي يوسف قَالَ يوسف وكان أعور، وأقبل على الشيخ فَقَالَ: يا هَذَا أتعرفني؟ قال: لا، فَقَالَ: فأنا ابن الشيخ الذي عبت منذ اليوم ونقصت فغفر الله لنا ولك، فَقَالَ لَهُ الشيخ: لقد كنت أرى أن قولي هَذَا ديانة والله لا ذكرت أباك بعد يومي هَذَا بسوء أبداً، فأقبل على أبي معشر فَقَالَ لي: يا بني هَذَا الأعور سيد[2].

والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط.

وقال مُحَمَّد بْن إشكاب: سمعت أبا يوسف وذكر بشر المريسي فقال: جيئوني بشاهدين يشهدان أنه تكلم في القرآن والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط.

فكنا نأتيه وكان لنا مدرساً

قالْ الفضل بْن سعيد بْن سلم: قلت لأبي يوسف: أكان أَبُوْحَنِيْفَةَ يرى رأي جهم؟ قال: نعم، قلت فأين أنت منه؟ قال: لا أين، قلت: وكيف وأنت من أصحابه؟ قال: كان أَبُوْحَنِيْفَةَ رجلاً قد أوتي فهماً، فكنا نأتيه وكان لنا مدرساً.

إن أفتيته بترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٥٦.
(٢) أخبار القضاة، ٣ / ٢٥٧.

قال حَدَّثَنِيْ مطرف الأصم: قدم هارون المدينة ومعه أَبُو يوسف فبعث إِلَى مالك بْن أنس: يأمرك أمير المؤمنين أن تخرج إليه، فكتب إليه مالك: يا أمير المؤمنين إني رجل عليل فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلي بما أراد فعل، فأراد أن يكتب إليه، فَقَالَ لَهُ أَبُو يوسف: ابعث إليه حتى يجيء إليك فبعث إليه فجاءه في دار مروان وقد هيئ لكل إنسان مجلس فهيئ لمالك مجلسه الذي له فَقَالَ لَهُ أَبُو يوسف: ما ترى في رجل حلف ألا يصلي نافلة أبداً، قَالَ: يضرب ويحبس حتى يصلي، قَالَ: فجاء هارون فَقَالَ لَهُ أَبُو يوسف: يا أمير المؤمنين إني سألت مالكاً عَن كذا وكذا فَقَالَ كذا فَقَالَ لَهُ هارون: وترى ذلك يا أبا عَبْد اللهِ؟ قال: لا، قَالَ أَبُو يوسف: أليس أفتيتني بذلك؟ قال: بلى ولكن أبا يوسف رجل عراقي إن أفتيته بترك النافلة يفتي الناس بترك الفريضة، وأنت لا أخافك على ذلك، فلما خرج مالك خرج معه أَبُو يوسف يتوكأ عليه ومالك يقول له: ارجع حتى بلغه منزله[1].

وواحد فِيْهِ شك فيشاطرانه

قال أبو مُحَمَّد الزهري: قدم هارون الرشيد المدينة فقعد في المسجد وقعد معه أَبُو يوسف، وبعث إِلَى مالك بْن أنس قال: فجعل أولاد أصحاب رَسُوْلِ اللهِ ﷺ يدخلون أربعة أربعة، فيقول هارون: أفيهم هو؟ فيقولون: لم يجئ بعد، حتى دخل مالك متوكئاً على رجل من ولد أبي بكر وآخر من ولد علي، فلما نظر إليه هارون قال: إن الرجل ليعظمه أهل بلده، قَالَ: فسلم وجلس فَقَالَ لَهُ هارون: يا أبا عَبْد اللهِ أجب يعقوب فيما يسألك عنه، قال: يا أمير المؤمنين ليس من أهل العلم أنشدك بالله هَلْ لرَسُوْلِ اللهِ ﷺ وقف يأخذ منه فيجعله حَيْثُ أراد

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦٠.

الله، قَالَ هارون: نعم، قال: فأنشدك الله هَلْ لِعُمَرَ وقف قَالَ: اللهم نعم، قَالَ: فهَذَا يزعم أن الوقف باطل، فالتفت هارون إِلَى أبي يوسف مغضباً فَقَالَ: ما تقول؟ قال: كان صاحبنا لا يراه وأنا أراه، قَالَ: فَقَالَ لَهُ مالك: ما تقول في الإمام يجهر بعرفة أو يخافت؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو يوسف: يجهر، قَالَ: أسأل الله ألا يهديك والله يا أمير المؤمنين إن السقايات بالمدينة يبينون هَذَا ويلك إنما هي ظهر وعصر فَقَالَ لَهُ يعقوب: ما تقول في رجل بعث مع رجل دينارين ورجل ديناراً فخلطها فلما قدم فتحها فأصاب دينارين فَقَالَ: مالك أما واحد فهو لصاحب الاثنين لا شك فيه، وواحد فِيْهِ شك فيشاطرانه[1].

فاشتر سفينة فهي جارية

قال مالك بن أنس: بلغني أن أبا يوسف جاءه إنسان فَقَالَ: إني حلفت بطلاق امرأتي لأشترين جارية وذلك يشتد علي لمكان زوجتي ومنزلتها عندي فَقَالَ لَهُ أَبُو يوسف: فاشتر سفينة فهي جارية.

فأجازه بجائزة عظيمة وكناه بأبي المفرج

حدثت عَن القاسم بْن مُحَمَّد المروزي عَن اليأس بْن الكامل عَن ابن المبارك قال: لما مات فلان الخليفة خلف جواري فرهة فأراد ابنه وطء جارية منهن فقالت: إني لا أحل لك إن أباك وطئني، فذهب وهو يقول:

أرى مـــاء وبي عطـــش شـــديد ::: ولكن لا ســـبيل إِلَـــى الـــورود
أمـــا يكفيـــك أنـــك تملكـــيني ::: وأن النـــاس كلـــهم عبيـــدي
وأنك لو قطعت يـــدي ورجلـــي ::: لقلت من الهوى أحسنت زيـــدي

ثم دعا أبا يوسف فسأله عَن ذلك، فقال: ليس كلما قالت الجارية

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦١.

يقبل منها فأجازه بجائزة عظيمة وكناه بأبي المفرج [1].

وأَبُو يوسف مركوب العرب

قال إبراهيم بْن الربيع بْن سليمان الكلابي من بني الوحيد: كان عَبْدوس بْن عبيدة بْن أبي اليمان العقيلي اختصم هو وابن خالته خنيس بْن ساعدة العقيلي إِلَى أبي يوسف القاضي ببغداد فذهب عَبْدوس فأحضر شهوداً وسماهم على أسماء أئمة المساجد المعدلين فلما شهدوا عند أبي يوسف سأل عنهم فعدلوا، وذلك سراً، وكذلك كانوا يعدلون في السر فجاء خنيس حينئذ إِلَى أولئك الشهود المشهورين الأئمة فجعل يلقى الرجل فيقول: يا عَبْد اللهِ لم شهدت علي فيقول: لا والله ما شهدت عليك ولا أعرفك ولا أعرف عَبْدوساً. فذهب خنيس إِلَى أبي يوسف فأخبره فقال: أحضروهم، فتبين أَبُو يوسف أنهم ليس بأولئك الذين شهدوا، فأمر بعَبْدوس فحمل ثم ضرب خمسين درة، فَقَالَ عَبْدوس في أبي يوسف قصيدة طويلة أحفظ منها:

مركب الناس ثنايا قسمت ::: وأَبُو يوسف مركوب العرب
وكذا المركوب من قلته ::: قَالَ: من حالب هَذَا لا حلب
أشبه الناس وجهاً وقفا ::: ورعينات بشيطان اللعب
ويرى الخنزير في جفنه ::: كوز فقاع إِذَا حل وثب
فإذا أقعى على منبره ::: خلته القرد إِذَا القرد صلب [2]

كأنك لا تحسن شيئاً إلا هَذَا

قال أَحْمَد بْن مُحَمَّد القاضي: سمعت أبا يوسف يقول: قَالَ لي يحيى بْن خالد: كل شيء تحسن غير مجالسة الملوك فإنه لا علم لك بأيام الناس، قَالَ: فجلست في البيت شهراً ونظرت في أيام الناس

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦٢.
(٢) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦٣.

فحفظت أمراً عظيماً، ثم أتيت يحيى بن خالد فتذاكرنا فَقَالَ لي: كأنك لا تحسن شيئاً إلا هَذَا أكنت تستره؟[1].

فإن لم تغرب الشمس إِلَى نصف الليل؟

قال عَبْدُ اللهِ بْن طاهربن أَحْمَد الزبيري: كان رجل يجلس إِلَى أبي يوسف القاضي فيطيل الصمت فَقَالَ لَهُ أَبُو يوسف: ألا تسأل ألا تتحدث؟ قال: بلى قَالَ: متى يفطر الصائم؟ قال: إِذَا غربت الشمس، قال: فإن لم تغرب الشمس إِلَى نصف الليل؟ قال: فتبسم أَبُو يوسف وتمثل ببيتي الخطفي جد جرير:

عجبت لإزراء العيي بنفسه ::: وصمت الذي قد كان بالعلم أعلما
وفي الصمت ستر للعيي وإنما ::: صحيفة لب المرء أن يتكلما

لعمري إن العلم لينفع دنيا وديناً

ثم قال الخطيب: وحكي أن والد أبي يوسف مات وخلف أبا يوسف طفلاً صغيراً، وأن أمه هي التي أنكرت عليه حضور حلقة أبي حنيفة، ثم روى الخطيب أيضاً بإسناد متصل إلى علي بن الجعد قال: أخبرني أبو يوسف القاضي قال: توفي أبي وخلفني صغيراً في حجر أمي، فأسلمتني إلى قصار أخدمه، فكنت أدع القصار وأمر إلى حلقة حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي فتأخذ بيدي فتذهب بي إلى القصار، وكان أبو حنيفة يعنى بي، لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم، فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي قالت لأبي حنيفة: ما لهذا الصبي فساد غيرك، هذا صبي يتيم لا شيء له وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه، فقال لها أبو حنيفة: مري يا رعناء، ها هو ذا يتعلم أكل

(١) أخبار القضاة، ٣ / ٢٦٤.

الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عنه وقالت له: أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك. ثم لزمته فنفعني الله تعالى بالعلم، ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته، فلما كان في بعض الأيام قدم إلى هارون فالوذجة، فقال لي: يا يعقوب كل منها فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها، فقلت: وما هذه يا أمير المؤمنين فقال: هذه فالوذجة بدهن الفستق، فضحكت، فقال لي: مم ضحكك! فقلت: خيراً، أبقى الله أمير المؤمنين، قال: لتخبرني، وألح علي، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذلك وقال: لعمري إن العلم لينفع دنيا ودیناً، وترحم على أبي حنيفة وقال: كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه [1].

أبو يوسف وهارون الرشيد

وحكى علي بن المحسن التنوخي عن أبي عن جده قال: كان سبب اتصال أبي يوسف بالرشيد أنه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رحمه الله تعالى فحنث بعض القواد في يمين، فطلب فقيهاً يستفتيه، فجيء بأبي يوسف فأفتاه أنه لم يحنث، فوهب له دنانير وأخذ له داراً بالقرب منه. ودخل القائد يوماً على الرشيد فوجده مغموماً، فسأله عن سبب غمه فقال: شيء من أمر الدين قد حزنني فاطلب فقيهاً كي أستفتيه، فجاءه بأبي يوسف. قال أبو يوسف: فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت فتى حسناً عليه أثر الملك، وهو في حجرة محبوس، فأومأ إلي بأصبعه مستغيثاً فلم أفهم منه إرادته، وأدخلت إلى الرشيد، فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي: ما اسمك فقلت: يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين، قال: ما تقول في إمام

(١) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٢.

شاهد رجلاً يزني هل يحده قلت: لا، فحين قلتها سجد الرشيد، فوقع لي أنه قد رأى بعض أهله على ذلك وأن الذي أشار إلي بالاستغاثة هو الزاني. ثم قال الرشيد: من أين قلت هذا قلت: لأن النبي ﷺ قال:«ادرأوا الحدود بالشبهات» وهذه شبهة يسقط الحد معها، قال: وأي شبهة في المعاينة قلت: ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى، والحدود لا تكون إلا بالعلم، وليس لأحد أخذ حقه بعلمه، فسجد مرة أخرى، وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار، فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته، وصار ذلك أصلاً للنعمة، ولزمت الدار، فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني، ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء[1].

من كان صاحب راية جالوت؟

وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب " الجليس والأنيس " عن الشافعي ﷺ أنه قال: مضى أبو يوسف ليسمع المغازي من محمد بن إسحاق أو من غيره، وأخل بمجلس أبي حنيفة أياماً، فلما أتاه قال له أبو حنيفة: يا أبا يوسف، من كان صاحب راية جالوت؟ فقال له أبو يوسف: إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملأ أيما كان أولاً وقعة بدر أو أحد فإنك لا تدري أيهما كان قبل الآخر، فأمسك عنه[2].

هل وقفت على شيء من خطأ؟

وذكر في الكتاب المذكور أيضاً عن علي بن الجعد أن القاضي أبا يوسف كتب يوماً كتاباً، وعن يمينه إنسان يلاحظ ما يكتبه، ففطن

(١) وهذا يخالف ما قيل من قبل من أنه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء. والله أعلم بالصواب.

(٢) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٣.

له أبو يوسف، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال له: هل وقفت على شيء من خطأ؟ فقال: لا والله ولا حرف واحد، فقال له أبو يوسف: جزيت خيراً حيث كفيتنا مؤونة قراءته، ثم أنشد:

كأنه من سوء تأديبه ::: أسلم في كتاب سوء الأدب

لا تطمع في رياسة ببلدة فيها أبو يوسف

وقال حماد بن أبي حنيفة: رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زفر، وهما يتجادلان في مسألة، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده زفر، ولا يقول زفر قولاً إلا أفسده أبو يوسف، إلى وقت الظهر، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زفر، وقال: لا تطمع في رياسة ببلدة فيها أبو يوسف، وقضى لأبي يوسف على زفر، ولم يكن بعد أبي يوسف في أصحاب أبي حنيفة مثل زفر [1].

لم لا تركبه

وكان أبو يوسف راكباً وغلامه يعدو وراءه، فقال له رجل: أتستحل أن تعدي غلامك وراءك لم لا تركبه فقال له: أيجوز عندك أن أسلم غلامي مكارياً قال: نعم، قال أبو يوسف: فيعدو معي كما كان يعدو لو كان مكارياً.

أظننا روعناك

وقال بشر بن الوليد الكندي، قال لي القاضي أبو يوسف: بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي فإذا داق يدق الباب دقاً شديداً، فأخذت علي إزاري وخرجت، فإذا هرثمة بن أعين، فسلمت عليه، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت: يا أبا حاتم، لي بك رحمة، وهذا وقت كما

(١) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٤.

ترى، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعاني لأمر من الأمور، فإن أمكنك أن تدفع بذلك إلى غد فلعله أن يحدث له رأي، فقال: ما لي إلى ذلك سبيل، قلت: كيف كان السبب قال: خرج إلي مسرور فأمرني أن آتي بك أمير المؤمنين، فقلت: تأذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأني وإن رزق الله العافية فلن يضرني، فأذن لي، فدخلت فلبست ثياباً جدداً، وتطيبت بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هارون الرشيد فإذا مسرور واقف، فقال له هرثمة: قد جئت به، فقلت لمسرور: يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي، وهذا وقت ضيق، فتدري لم طلبني أمير المؤمنين قال: لا، فقلت: فمن عنده قال: عيسى بن جعفر، قلت: ومن؟ قال: ما عندهما ثالث، ثم قال لي: مر، فإذا صرت في الصحن فإنه في الرواق، وهو ذاك جالس فحرك رجلك بالأرض، فإنه سيسألك فقل: أنا. قال أبو يوسف: فجئت ففعلت ذلك فقال: من هذا، فقلت: يعقوب، فقال: ادخل، فدخلت فإذا هو جال وعن يمينه عيسى بن جعفر، فسلمت فرد السلام علي وقال: أظننا روعناك فقلت: إي والله وكذلك من خلفي، فقال: اجلس، فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إلي وقال: يا يعقوب، تدري لم دعوتك قلت: لا، قال: دعوتك لأشهدك على هذا إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع، وسألته أن يبيعها فأبى، والله لئن لم يفعل لأقتلنه، قال أبو يوسف: فالتفت إلى عيسى فقلت له: وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة قال فقال لي: عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي، قلت: وما في هذا من الجواب قال: إن علي يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع في هذه الجارية ولا أهبها، فالتفت إلي الرشيد فقال: هل له في ذلك من

مخرج قلت: نعم، قال: وما هو قلت: يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يهب ولم يبع، فقال عيسى: ويجوز ذلك قلت: نعم، قال: فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار، فقال له الرشيد: قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار، ثم طلب منه الجارية، فأتى بالجارية وبالمال، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، فقال الرشيد: يا يعقوب بقيت واحدة، فقلت: وما هي فقال: هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ، ووالله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إني لأظن أن نفسي ستخرج، فقلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها، فإن الحرة لا تستبرأ، قال: فإني قد أعتقتها فمن يزوجنيها فقلت: أنا. فدعا بمسرور وحسين، فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوجته إياها على عشرين ألف دينار، ودعا بالمال فدفعه إليها، ثم قال لي: يا يعقوب انصرف، ورفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور، فقال: لبيك، فقال: احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً، فحمل ذلك معي. قال بشر بن الوليد: فالتفت إلي أبو يوسف وقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت فقلت: لا، فقال: خذ حقك منها، قلت: وما حقي فقال: العشر، قال بشر: فشكرته ودعوت له وذهبت لأقوم، فإذا بعجوز قد دخلت فقالت: يا أبا يوسف إن بنتك تقرئك السلام وتقول لك: والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين إلا المهر الذي قد عرقته، وقد حملت إليك النصف منه وخلفت الباق لما أحتاج إليه، فقال: رديه فوالله لا قبلتها؛ أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا! قال بشر: فلم نزل نطلب إليه أنا وعمومتي حتى قبلها، وأمر لي منها بألف دينار[1].

ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر

(١) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٦.

وقال أبو عبد الله اليوسفي: إن أم جعفر زبيدة ابنة جعفر زوجة الرشيد كتبت إلى أبي يوسف: ما ترى في كذا، وأحب الأشياء إلي أن يكون الحق فيه كذا، فأفتاها بما أحبت، فبعثت إليه بطبق فضة فيه حقاق فضة مطبقات، في كل واحد لون من الطيب، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير، فقال له جليس له: قال رسول الله ﷺ:«من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها»، فقال أبو يوسف: ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر.

هذا لا يعزل أبداً

كان عبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر قاضياً على بلدة المبارك [1]قال: فبلغ القاضي خروج الرشيد إلى البصرة ومعه أبو يوسف القاضي في الحراقة، فقال عبد الرحمن القاضي لأهل ذلك البلد، فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلساناً أسود، وجاء إلى الشريعة، فلما صدق، ثم مضى إلى شريعة أخرى فقال مثل مقالته الأولى، فالتفت هارون إلى أبي يوسف وقال: يا يعقوب هذا شر قاض في الأرض، قاض في موضع لا يثني عليه إلا رجل واحد! فقال له أبو يوسف: وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضي يثني على نفسه، قال: فضحك هارون وقال: هذا أظرف الناس، هذا لا يعزل أبداً، وكان الرشيد إذا ذكره يقول: هذا لا يعزل أبداً. وقيل لأبي يوسف: أتولي مثل هذا القضاء فقال: إنه أقام ببابي مدة وشكا إلي الحاجة فوليته.

صح ستره وخلصت أمانته

(١) وهي بضم الميم وبعدها باء موحدة وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها كاف، وهي بليدة بين بغداد وواسط على شاطئ دجلة -.

قال الرشيد لأبي يوسف: بلغني أنك تقول: إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذاك قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت[1].

تزيبت قبل أن تحصرم

لما جلس أبو يوسف رحمه الله تعالى للتدريس من غير إعلام أبي حنيفة رحمه الله فأرسل إليه أبو حنيفة رحمه الله رجلا فسأله عن خمس مسائل: الأولى: قصار جحد الثوب وجاء به مقصورا هل يستحق الأجرة أم لا؟ فأجاب أبو يوسف رحمه الله: لايستحق الأجر فقال له الرجل: أخطأت فقال: لا يستحق فقال: أخطأت ثم قال له الرجل: إن كانت القصار قبل الجحود استحق وإلا لا، الثانية: هل الدخول في الصلاة بالفرض أم بالسنة فقال: بالفرض فقال: أخطأت فقال: بالسنة فقال: لا أخطأت لا فتحير أبو يوسف رحمه الله فقال الرجل: بهما لأن التكبير فرض ورفع اليدين سنة. الثالثة: طير سقط في قدر على النار فيه لحم ومرق: هل يأكلان؟ أم لا؟ فقال: يؤكل فخطأه فقال: لا يؤكل فخطأه ثم قال: إن كان اللحم مطبوخا قبل سقوط الطير يغسل ثلاثا ويؤكل وترمى المرقة وإلا يرمى الكل له. الرابعة: مسلم له زوجة ذمية ماتت وهي حامل منه تدفن في أي المقابر فقال أبو يوسف رحمه الله: في مقابر المسلمين فخطأه فقال: في مقابر أهل الذمة فخطأه فتحير أبو يوسف فقال الرجل: تدفن في مقابر اليهود

(١) وفيات الأعيان، ٦ / ٣٨٨.

ولكن يحول وجهها عن القبلة حتى يكون وجه الولد إلى القبلة لأن الولد في البطن يكون وجهه إلى ظهر أمه، الخامسة: أم ولد لرجل تزوجت بغير إذن مولاها فمات المولى هل تجب العدة من المولى فقال: تجب فخطأه ثم قال: لا تجب فخطأه ثم قال الرجل: إن كان الزوج دخل بها: لا تجب وإلا: وجبت فعلم أبو يوسف تقصيره فعاد إلى أبي حنيفة رحمه الله فقال: تزببت قبل أن تحصرم [1].

من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه

وفي مناقب الكردري: أن سبب انفراده أنه مرض مرضا شديدا فعاده الإمام وقال: لقد كنت آملك بعدي للمسلمين ولئن أصبت ليموتن علم كثير فلما برأ أعجب بنفسه وعقد له مجلس الأمالي وقال له حين جاء: ما جاء بك إلا مسألة القصار سبحان الله من رجل يتكلم في دين الله ويعقد مجلسا لا يحسن مسألة في الإجارة: ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه.

ستصير قمرا

قال أبو بكره بن قتيبة سمعت هلالا يقول لما قدم علينا أبو يوسف اجتمع على بابه اصحاب الحديث وأصحاب الرأي جميعا وتولاه كل فريق وزعم أنه أولى به وبالدخول عليه من الفريق الآخر فأشرف على الناس فقال لهم: أنا والله من الفريقين جميعا ولست أقدم فرقة على الأخرى إلا بمعنى يتبين به تقدمها وها أنا ذا أسأل عن مسألة فأي الفريقين اصابها دخل فأخرج خاتما كان في يده فقال رجل أخذ خاتمي فمضغه حتى هشمه فقام أصحاب الحديث من كل ناحية فاختلفوا فمنهم من قال عليه أن يعيده مصوغا كما كان ومنهم قال

(١) الأشباه والنظائر، ١ / ٤٥٩.

عليه ما نقصه فلما رأيت أنا ذلك قمت من بين اصحابي فقلت اصلحك الله هو لهذا الهاشم وعليه لصاحبه قيمته مصوغا من الذهب إلا أن يشاء صاحبه أن يمسكه ولا يكون على هاشمه شيء فصوبني أبو يوسف وأدناني وأدخلني وأدخل أصحابي فقال: ما أسمك؟ قلت: هلال. قال: ستصير قمرا وأملى علينا مسألة من المكاتب قد تقدم من قوله في كتاب الصرف خلاف ذلك فلما فرغ منها قمت إليه فقلت له: أصلحك الله هذا خلاف قولكم في كتاب الصرف أفنمحوا ذلك ونثبت هذا أم نمحو هذا ونثبت ذلك؟ فقال: دعوهما فسيأتي من يميز بينهما. قال هلال: وشاهدي على ذلك كله قتيبة البكراوي يعني أبا بكرة وكان حاضرا ذلك كله [1].

يضرب بأصحابه الأمثال

قال محمد بن شجاع قال: سمعت الحسن بن أبي مالك يقول: كان أبو يوسف يضرب بأصحابه الأمثال فيقول في محمد بن الحسن اي سيف هو لولا أن فيه صدأ وأنه يحتاج إلى جلاء. ويقول في الحسن اللؤلؤي هو عندي كالصيدلاني إذا طلب رجل ما يمسك بطنه أعطاه ما يسهله فإذا طلب ما يسهل بطنه أعطاه ما يمسكه، وكان يقول: المريسي هو عندي كابرة الرفاء طرفها دقيق ومدخلها ضيق وهي سريعة الانكسار وكان يقول لابراهيم بن الجراح: هو عندي كرجل عنده دراهم مكحلة فكلما مسها نقصت، وكان يقول للحسن ابن أبي مالك هو عندي كجمل حمل متاعا ثقيلا في يوم مطير فتذهب يده مرة هكذا ومرة هكذا ثم يسلم [2].

يا قاتل المسلم بالكافر

(١) أخبار ابي حنيفة، ١ / ١٠٤.
(٢) المصدر السابق، ١ / ١٠٥.

قال علي بن عمرو: رفع إلى أبي يوسف رجل مسلم قتل ذميا عمدا وقامت البينة عليه فأمر بحبسه ليقاد منه فلما كان في يوم مجلس القضاء رفعت إليه رقاع الخصوم فإذا فيها رقعة مكتوب فيها:

يا قاتل المسلم بالكافر ::: جرت وما العادل كالجائر
يا من ببغداد وأقطارها ::: من فقهاء الناس أو شاعر
جار على الدين أبو يوسف ::: بقتله المسلم بالكافر
فاسترجعوا وأبكوا جميعا معا ::: واصطبروا فالأجر للصابر

قال فأخذ ابو يوسف الرقعة ودخل بها على الرشيد فأعلمه فقال له فاذهب فاحتل فجلس أبو يوسف وحضر ولي الدم والمدعى عليه فقامت البينة فقال أبو يوسف لولي الدم أقم عندي البينة أن صاحبك كان يؤدي الجزية فلم يقم له البينة فمنع النقود [1].

ولم أسو بينه وبين الخصم في المجلس

قال أبو زيد حماد بن دليل: قال أبو يوسف: قعد أمير المؤمنين للمظالم فكنت السفير بينه وبين المتظلمين آخذ قصصهم واوصلها اليه فجاءني رجل كبير من أهل السواد ومعه قصة فيها دعوى بستان محدود يزعم ان ذلك له في يد أمير المؤمنين وأنه غصبه عليه فقلت في يد من هو فقال في يد أمير المؤمنين قلت من أكاره قال هو في يد أمير المؤمنين غصبني عليه فجعلت أديره بكل وجه على أن ينصرف عن مطالبة أمير المؤمنين إلى مطالبة غيره فيأبى أن ينصرف عن دعواه أن المطلوب به أمير المؤمنين فدخلت بالقصص وأمير المؤمنين قاعد على كرسي ويحيى بن خالد قعد معه فجعلت أخرج القصص فخرجت قصته بالقرب مني فلم استجز تأخيرها فقلت

(١) أخبار ابي حنيفة، ١ / ١٠٦.

يا أمير المؤمنين حضر شيخ كبير من أهل السواد فادعى بستان كذا فجهدت به أن يطالب بدعواه رجلا من الرعية فأبى فقال مطالبتي لأمير المؤمنين فقال هذا البستان أعرفه وهبه لي أبي وهو لي في ملكي قلت أفيحضر الرجل قال نعم فاحضرته قلت: ما تدعي؟ قال: أدعي بستان كذا وحدده على أمير المؤمنين هذا وأشار إليه. قلت: من يقوم به وفي يد من هو؟ قال: في يد أمير المؤمنين هذا قلت لأمير المؤمنين ما تقول في دعوى هذا الرجل قال ما له في يدي هذا الحق الذي يدعيه وما هذا البستان له قلت له ألك بينة؟ قال: يمينه قلت له: يا أمير المؤمنين عليك اليمين قال: استحلفني فاستحلفته فحلف فوثب الشيخ منصرفا فسمعته وقد أدبر يقول استفه كشربة سويق وتربد وجه أمير المؤمنين حين حلف وأطرق يفكر فقلت هلكت وهلك الرجل فقال يحيى بن خالد يا يعقوب رأيت مثل أمير المؤمنين في عدله وإنصافه لرجل من رعيته أنصف من نفسه حتى فعل ما رأيت فسرى عن أمير المؤمنين وفرح، بذلك وقال: سبحان الله وبد من الإنصاف وقال يحيى بن خالد لو جاءت هذه من الفاروق لكانت حسنة أو كما قال: قال أبو زيد قال لنا أبو يوسف فما أذكر ذلك المجلس إلا دخلني منه غم شديد وخفت الله من تركي العدل فيه فقلنا وما يكون أكثر مما فعلت قال ألم تفهموا ما فيها قلنا لا ما رأينا إلا عدلا وقياما بالحق قال: كيف ولم أسو بينه وبين الخصم في المجلس فأقول يا أمير المؤمنين أنت على كرسي وهو على الأرض فيدعي له بكرسي فيجلس عليه[1].

فندم أبو يوسف على كلامه

(١) أخبار ابي حنيفة، ١ / ١٠٧.

كان الرشيد يجمع العلماء ويسمع كلامهم، فحضروا ذات يوم وفيهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، والكسائي يذكر النحو، فقال له: أحذق الناس به يكون معلماً، فقال له الكسائي: أسالك عن مسألة في الفقه، قال: سل، قال: ما تقول في غلام لك قتل فاتهمت به رجلين فسألتهما عن أمره فقال أحدهما: أنا قاتل غلامك، وقال الآخر: أنا قاتل غلامك، أيهما القاتل عندك؟ قال أبو يوسف: جميعاً، قال الكسائي: أخطأت، قال: فأيهما القاتل عندك؟ قال: والذي قال: أنا قاتلٌ غلامك، لأن قوله: أنا قاتل غلامك يريد أنا قتلته، والذي قال: أنا قاتل - بالتنوين - غير قاتل، أراد: سأقتل غلامك، فهو تهدد، قال الله تعالى:{فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا } [الأنعام: ٩٦]، المعنى فلق الإصباح، فندم أبو يوسف على كلامه [1].

فما نلت منكم طائلاً غير أنني ::: تعلمت حال الفقر كيف تكون

حدث أبو عبد الله الفضل بن الحسن الأهوازي، قال: قدم إلى الأهواز رجلٌ من ولد الحسن بن سهل، حسن الهيئة والأدب، فأخبرنا جماعةٌ من العراقيين أنه كان في نعمةٍ واسعةٍ فزالت عنه، وكان قصده لأحمد بن دينار، فقبله أحمد وقال: الزمني ووعده الإحسان، وأجرى عليه وعلى غلام كان معه نزلاً من خبز ولحمٍ وتوابله مقدار ثلاثة دراهم، وقال له: تمهلني فإني في شغلٍ، فإذا انكشف وجهي بلغت لك ما تحب، فطال مقامه وأخلقت أثوابه، فكتب إليه:

صحبتكم عامين في حال عسرةٍ ::: أرجي نداكم والظنون فنون
فما نلت منكم طائلاً غير أنني ::: تعلمت حال الفقر كيف تكون

فوصلت الرقعة إلى أحمد بن دينار، وكان يعقوب بن إسحاق اليزيدي حاضراً، فقال: لمن هذا؟ فقال: لرجلٍ من ولد الحسن بن

(١) البصائر والذخائر، ٥ / ٢٠٣.

سهل، قال له: وهو مقيمٌ عندك نحواً من حولين، قال: قريب من ذلك، فانصرف أبو يوسف ووجه إلى الرجل فأحضره ودفع له بمائة دينار، وقسط له على جماعة من الوجوه أربعة آلاف درهم، وكتب له إلى بزازٍ كان يعامله بكسوةٍ بألف درهم، ووجه من اكترى له زورقاً إلى مدينة السلام، وزوده زاداً كبيراً حسناً، وقال له: اخرج لا تلق من قصدته، فقال: والله لأضربن جودك على نائل يكون منه، ولأفردن الشكر لك دونه، ولأتجهن إلى الله تعالى في صيانتك عن كل دناءةٍ ومعرةٍ كما صنتني عنها، وانصرف.وبلغ الخبر ابن دينار، وكان ذلك سبب وحشةٍ عظيمةٍ صارت بينهما [1].

تدري من خلف هذا الستر؟

أرسل أمير المؤمنين الرشيد إلى قاضي القضاة أبو يوسف، في ساعةٍ لم يكن يرسل إليه في مثلها، قال أبو يوسف: فتحنطت وتكفنت ولبست فوق ذلك ثيابي، ودخلت على أمير المؤمنين، فألفيته جالساً على طرف المصلى، وإذا بين يديه سيف مسلول، فسلمت فرد علي السلام وأدناني، فشم مني رائحة الحنوط، فقال: ما هذه الرائحة فأخبرته الخبر فاسترجع، ثم أمر بذلك فنزع عني، وجاءني بثياب فلبستها، ثم قال لي: تدري من خلف هذا الستر؟ قلت: لا، يا أمير المؤمنين، قال: إن خلفه أعز خلق الله تعالى علي، قال: فظننت أنها الخيزران، ثم قال: إني أودعتها عقوداً لها مقدار، وجوهراً له خطر، وإني فقدت منها عقداً، فحلفت بأيمان البيعة وأكدتها على نفسي أنها تصدقني عن خبره، فإن لم تصدقني ضربتها بسيفي هذا حتى أبضعها قطعاً، قال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين! قد أخرجك الله

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١٣٧.

تعالى من يمينك، فمر بالسيف يرد إلى غمده، فأمر به فرد إلى غمده، فقلت: يا أمير المؤمنين! سلها وعرفها يمينك، فسألها وغلظ عليها الأمر، قال: قل لها: لا تجيبك حتى أقول لها، ثم قال لها أبو يوسف: أمسكي، ثم قال: يا أمير المؤمنين! فسلها ثانية، فسألها وغلظ عليها ما حلف به، فقال لها أبو يوسف: قولي إني لم آخذه، فقالت: لم آخذه.

ثم التفت إلى أمير المؤمنين، فقال: قد صدقتك في أحد القولين إن كانت أخذته فقد صدقت، وإن كانت لم تأخذه فقد صدقتك.

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقاما وخرجا من البيت الذي كانا فيه إلى خزانة، فأمر بها ففتحت وأخرج إليه أسفاطٌ فأمر بها فحلت، فإذا فيها جوهر له خطر، فقال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين! ما رأيت أحسن من هذا، فإن رأيت أن تهبه لي؟ فقال: لا والله ما نفسي بذلك طيبة، فقال: فهبه لأم جعفر، فقال: لا والله، ولا نفسي به طيبة، قال: يا أمير المؤمنين! فإن لم تفعل لا هذا ولا ذا فتعلم أم جعفرٍ أني سألتك أن تهب لها هذه العقود فأبيت، قال: أما ذا فنعم، فأعلم أم جعفر بذاك فأنفذت إلى أبي يوسف بمائة ألف درهم[1].

هذا نذير الكلاب!

قال الإمام أبو يوسف القاضي رحمه الله كنت ماراً في طرقات الكوفة وإذا أنا بعليان المجنون قلما بصر بي سلم علي وقال لي أيها القاضي مسئلة قلت هات، قال أليس قال الله تعالى في كتابه العزيز: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [الأنعام: ٣٨]. قلت بلى قال أليس قال الله عز وجل:{وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤]، قلت بلى، قال فما نذير الكلاب، قلت لا أدري فأخبرني، قال لا والله

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢١٦.

لا أقول إلا بمن رقاق من شواء ونصف من فالوذج، فأمرت من جاء بها، ودخلت معه مسجداً فأكلها حتى أتى على آخرها، فقلت هات الجواب فأخرج من كمه حجراً وقال هذا نذير الكلاب! (١)

أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل

عن إبراهيم بن المهدي أنه كان يتغدى مع الرشيد في يوم شاتٍ، وإن الرشيد سأل صاحب المطبخ: هل عنده برمة من لحم الجزور؟ فأعلمه أن عنده عدة ألوان منه، فأمر بإحضار ما عنده منه، فقدمت إليه صحفة ومد يده إلى لقمة منها فأدخلها في فيه، فلما حرك لحييه عليها مرتين ضحك جعفر بن يحيى، فسأله الرشيد عن سبب ضحكه، وأمسك عن المضغ، فقال: ذكرت كلاماً دار بيني وبين جاريتي البارحة فضحكت منه، فقال له الرشيد: هذا محال، فأخبرني عن السبب بحقي عليك، فقال له جعفر: إذا ابتلع أمير المؤمنين لقمته حدثته السبب، فأخرج لقمته من فيه وألقاها تحت المائدة، فلما فعل ذلك قال له جعفر بكم يتوهم أمير المؤمنين والقاها تحت المائدة، فلما فعل ذلك قال له جعفر: بكم يتوهم أمير المؤمنين أن هذا اللون يقوم عليه؟ فقال له الرشيد: أتوهمه يقوم علي بأربعة آلاف درهم، فقال له جعفر: والله إن هذا اللون ليقوم عليك بأربع مائة ألف درهم، فقال: وكيف ويحك؟ فقال جعفر: سأل أمير المؤمنين صاحب المطبخ منذ أكثر من أربع سنين عن برمةٍ من لحم الجزور فأخبره أنه لم يتخذها، فأنكر ذلك علي أمير المؤمنين وقال: لا يفت مطبخي لون يتخذ من لحم الجزور في كل يوم، فأنا منذ ذلك اليوم أنحر جزوراً في كل يومٍ لأن الخلفاء لا يبتاع لهم لحم الجزور من السوق، ولم يدع أمير

(١) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، ص ٢٨.

المؤمنين بشيءٍ من لحمها إلى يومه هذا. قال إبراهيم: وكان الرشيد في أول طعامه ولم يكن أكل إلا ملهوجة وأحدةً، وكان أشد خلق الله تقززاً، فصعق حين قال له جعفر ما قال، وضرب بيده اليمنى وفيها الغمر وجهه ومد بها لحيته ثم قال: هلكت ويلك يا هارون، واندفع يبكي، وأمر برفع المائدة وطفق يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلاة الظهر، وأمر أن يفرق ألف ألف درهم وأن يفرق في كل جانب من جانبٍ من جانبي بغداد خمسمائة ألف درهم وأن يفرق في كل مدينةٍ من الكوفة والبصرة خمسمائة ألف درهمٍ، وقال: لعل الله تعالى أن يغفر لي هذا الذنب. وقام يصلي الظهر، ثم عاد في مكانه فلم يزل باكياً حتى أذنه المؤذنون بصلاة العصر وقام فصلى: وعاد لمكانه إلى أن قرب ما بين صلاة العصر والمغرب، فأخبره القاسم بن الربيع مولاه أن أباه يوسف القاضي بالباب فأمره بإدخاله، فدخل وسلم فلم يرد عليه وأقبل يقول: يا يعقوب هلك هارون، فسأله يعقوب عن القصة فقال: يخبرك جعفر بها، وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة فقال: يخبرك جعفر بها، وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة والسبب المخرج للرشيد إلى ما خرج إليه، فحدثه جعفر عن الجزور التي كانت تنحر في كل يوم طول تلك المدة ومبلغ ما أنفق في أثمانها من الأموال، فقال له أبو يوسف: أخبرني عن هذه الإبل التي كانت تبتاع بهذه الدراهم هل كانت تترك إذا نحرت حتى تفسد، ولا تؤكل لحومها حتى تنتن فيرمى بها؟ قال جعفر: اللهم لا، قال أبو يوسف: فكان يصنع بها ماذا؟ قال: يأكلها الحشم والموالي وعيال أمير المؤمنين، فقال أبو يوسف: الله أكبر الله أكبر، أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل من الله عز وجل على نفقتك، وأبشر بثواب الله تعالى على ما فتح لك من

الصدقة في يومك هذا، ومن البكاء للتقية من ربك، فإني لأرجو يا أمير المؤمنين أن لا يرضى الله تعالى من ثوابه على ما قد داخلك من الخوف من سخطه عليك إلا الجنة، فإنه يقول تعالى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾} [الرحمن: ٤٦]، وأنا أشهد بالله تعالى أنك خفت مقام ربك، فسري عن الرشيد وطابت نفسه ووصل أبا يوسف بأربعمائة ألف درهم، ثم صلى المغرب ودعا بطعامه فأكل، فكان غداؤه في اليوم عشاءه [١].

هذا لم يكن في الصلاة إنما كان في الصيد

استأذن القاضي أبو يوسف على المتوكل فقال لعبادة: اخرج نشاركه على أن يلزم الحائط ساكتاً، وتوعده إن نطق بحرف أن يقبله، فأقبل على القاضي يسأله عن مسائل من الفقه، إلى ان سأله عن رجل يصلي فرمى بطرفه إلى ثوبه فرأى دابة، فقال يردها إلى سبعين، فإن رأى أخرى؟ قال يفعل بها مثل ذلك، قال: فإن رأى أخرى؟ فابتدر عبادة فقال: هذا لم يكن في الصلاة إنما كان في الصيد [٢].

أنا لا أحكم على غائب

أبو يوسف القاضي رحمه الله تعالى، تحاكم إليه الرشيد وزبيدة في الفالوذج واللوزينج أيهما أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب. فأمر باتخاذهما وتقديمهما إليه، فجعل يأكل من هذا مرة ومن ذلك أخرى حتى نظف الجانبين ثم قال: يا أمير المؤمنين، ما رأيت أجدل منهما، إن أردت أن أسجل لأحدهما أدلى الآخر بحجة [٣].

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ٢٨٣.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١ / ١٠٩، ١٥٦، ٣١١.
(٣) الثعالبي، اللطف واللطائف، ص ١٠.

وقد كنت في بيتي والدروب مغلقةٌ، فحين دعاني فتحت

دعا الرشيد أبا يوسف ليلاً فسأله عن مسألةٍ فأفتاه، فأمر له بمائة ألف درهم، فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بتعجيلها قبل الصبح، فقال: عجلوها له، فقيل إن الخازن في بيته والأبواب مغلقةٌ، فقال أبو يوسف: وقد كنت في بيتي والدروب مغلقةٌ، فحين دعاني فتحت [1].

أنتِ طالقٌ إن دخلت الدار؟

دخل أبو يوسف الفقيه على الرشيد وعنده الكسائي يحدثه، فقال: ياأمير المؤمنين، قد سعد هذا الكوفيّ بك وشغلك. فقال الرشيد: النحو أستعين به على القرآن والشعر. فقال الكسائي: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له بجوابي عن مسألة من الفقه؟ فضحك الرشيد وقال: أبلغت - ياكسائي - إلى هذا، قل! فقال الكسائي: ماتقول في رجلٍ قال لامرأته: أنتِ طالقٌ إن دخلت الدار؟ قال أبو يوسف: إذا دخلت طلقت. فقال الكسائي: أخطأت! إذا فتحت " إن " فقد وجب الأمر لأن " أن " بالفتح لما قد كان، وإذا كسرت فلم يقع بعد. فنظر أبو يوسف بعد ذلك في النحو [2].

نعم القاضي قاضي جبل

حدث عبد الرحمن بن مسهر قال ولاني القاضي أبو يوسف القضاء بجبل وبلغني أن الرشيد منحدر الى البصرة فسألت أهل جبل أن يثنوا علي فوعدوني ان يفعلوا ذلك وتفرقوا فلما آيسوني من انفسهم سرحت لحيتي وخرجت فوقفت له فواقى وأبو يوسف في

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٢ / ٣٥٦.
(٢) المرزباني، نور القبس، ص ١٠٧.

الحراقة فقلت يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل قد عدل فينا وفعل وصنع وجعلت أثني على نفسي فرآني ابو يوسف فطأطأ رأسه وضحك فقال هرون مم تضحك فقال إن المثني على نفسه هو القاضي فضحك هرون حتى فحص برجليه وقال هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله فعزلني [1].

لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي

وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل فقال أبو يوسف قم أتؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع يا غلام ائتني بعمرو بن أبي عمرو النحاس فإنه إن قدم على الساعة أمرته ببيع هذا العبد وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين ثم إن الحاجب اخذ بيده حتى أوقفه بمساواة خصمة فلما انقضي الحكم رجع الخادم الى المعتضد وبكى بين يديه وأخبره بالقصة فقال له لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم فإن ذلك عمود السلطان وقوام الأديان والله تعالى أعلم [2].

لو كنت فقيهاً لما تكلمت في الصلاة

ومثله قول أبي يوسف بعرفة وقد صلى خلف الرّشيد فلما سّلم في الرّكعتين قال: يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر. فقال بعض

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، الناشر: المكتب التجاري - بيروت، ص ١٠٢.

(٢) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ١ / ٢٢١.

أهل مكة: من عندنا خرج العلم إليكم. فقال أبو يوسف: لو كنت فقيهاً لما تكلمت في الصلاة[1].

لله درّكم يا أصحاب أبي حنيفة، من ذا يقاومكم

وحدَّثني الحسن بن محمد الوليدي الفقيه عن مشايخه أنَّ أبا يوسف القاضي كان عند الرشيد ذات يوم وبين يدي الرشيد غلام مختطّ حسن الوجه من أبناء عمّه قائم علَى رسم الخدمة، وكان الرشيد يحدّث أبا يوسف وأبو يوسف يحدّد النَّظر إلى الغلام، فقال له الرشيد: هو ذا أحدّثك وأنت مقبل ببصرك علَى هذا القائم، فقال أبو يوسف: نعم يا أمير المؤمنين، حدَّثني ابن أبي ذئب عن الزهري عن أنس عن النَّبيّ ﷺ أنَّه قال: " ثلاثة تجلو البصر: الاكتحال بالإثمد، والنَّظر إلى الماء الجاري، والنَّظر إلى الوجه الحسن "، وأنا شيخ ضعيف البصر أحببت أن أجلو بصري، فتبسَّم الرشيد وأومأ بيده فقامت جارية من وراء الخدر ونقرت العود نقراً أعجب السَّامعين جودة فصبر أبو يوسف حتَّى فرغت، ثمَّ قال: أحسنت، فقال الرشيد: لم تقتصر علَى حسن السماع حتَّى قلت أحسنتِ، فقال: إنَّما قلتُ أحسنتِ حين أمسكت، فقال الرشيد: لله درّكم يا أصحاب أبي حنيفة، من ذا يقاومكم[2].

من كلامه:

- عن أبي يوسف رحمه الله أنه قال: من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ومن تتبع غريب الحديث كذب.

(١) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ص ٦.
(٢) العبدلكاني الزوزني، حماسة الظرفاء، ص ٢٣.

- قال أبو يوسف: ناظرت أبا حنيفة ستة أشهر فاتفق رأينا على أن من قال القرآن مخلوق فهو كافر.

- وقال بشار الخفاف: سمعت أبا يوسف يقول من قال القرآن مخلوق ففرض منابذته[1]

- قال: أبو يوسف: بخراسان صنفان ما على الأرض شر منهما المقاتلية والجهمية.

- قال أبو يوسف: العلم بالكلام جهل.

- قَالَ علي بْن إشكاب: سمعت أبا يوسف يقول: يا قوم أريدوا بفعلكم الله، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فِيْهِ أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ولم أجلس مجلساً قط أنوي فِيْهِ أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح[2].

- صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة.

- وكان يقول: رؤوس النعم ثلاثة: فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها، والثانية: نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها.

- وقال علي بن الجعد: سمعت أبا يوسف يقول: العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كذلك، وأنت إذا أعطيته كذلك من إعطائه البعض كنت على غرر.

- عن أبي يوسف قال: ثلاث، صدق باثنتين ولا تصدق بواحدة،

(١) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، العلو للعلي الغفار، تحقيق أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) أخبار القضاة، ٣ / ٢٥٩.

إن قيل لك إن رجلاً كان معك فتوارى خلف حائط فمات فصدق، وإن قيل لك إن رجلاً فقيراً خرج إلى بلد فاستفاد مالاً فصدق، وإن قيل لك إن أحمق خرج إلى بلد فاستفاد عقلاً فلا تصدق [١].

قال أبو يوسف القاضي: إثبات الحجّة على الجاهل سهل، ولكن إقراره بها صعب [٢].

- وقال له بعض الناس يوماً يا مجنون، فقال مهلاً إنما المجنون من عرفه ثم عصاه [٣].

وقال أبو يوسف: الكفء على الحقيقة المساوي في النسب والمال والدين [٤].

وقال أبو يوسف الناس ثلاثة مجنون ونصف مجنون وعاقل فأما المجنون فأنت منه في راحة لتركك الاختلاط به وأما نصف المجنون فأنت معه في تعب لضرورتك إليه وأما العاقل فقد كفيت مؤنته [٥]

وقال أبو يوسف: إثبات الحجة على الجاهل سهل، ولكن إقراره بها صعب.

وقد رضي قوم بالجهل فقالوا: ضعف العقل أمان من الغم؛ وقالوا: ما سر عاقل قط [٦].

- وقال أبو يوسف: خوف مالا دفع له من أخلاق من لا عقل له.

---

(١) جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، أخبار الحمقى والمغفلين، ص ٣.

(٢) أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، البصائر والذخائر، ط دار صادر - بيروت - لبنان - ١٤١٩هـ - ٩٩٩ م، ٨ / ٢٣.

(٣) أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، ص ٢٨.

(٤) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/ ٤١٣.

(٥) الوطواط، غرر الخصائص الواضحة، ص٦١.

(٦) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١ / ٣٥٧.

من حسن خلقه وجب حقه.

- من عجل وجل.

- صغر القدر يحمل على ادعاء الفخر.

- من لم يكن فخره بفعله فلا فخر له[1].

ما كتب به أبو يوسف رحمه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما كتب به أبو يوسف رحمه الله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد)

أطال الله بقاء أمير المؤمنين، وأدام له العز في تمام من النعمة، ودوام من الكرامة، وجعل ما أنعم به عليه موصولا بنعيم الآخرة الذي لا ينفذ ولا يزول، ومرافقة النبي ﷺ.

إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات والجوالي، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته، والصلاح لأمرهم. وفق الله تعالى أمير المؤمنين، وسدده وأعانه على ما تولى من ذلك، وسلمه مما يخاف ويحذر، وطلب أن أبين له ما سألني عنه مما يريد العمل به، وأفسره وأشرحه. وقد فسرت ذلك وشرحته.

يا أمير المؤمنين، إن الله وله الحمد قد قلدك أمراً عظيماً: ثوابه

(١) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص ١١٨.

أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب. قلدك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم الله وائتمنك عليهم، وابتلاك بهم وولاك أمرهم، وليس يلبث البنيان - إذا أسس على غير التقوى - أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه. فلا تضيعنَّ ما قلدك الله من أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن الله.

- لا تؤخر عمل اليوم إلى غد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل بعد الأجل. إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه. فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار، فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك. وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب. وإذا نظرت إلى أمرين أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى. وكن من خشية الله على حذر، واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد، ولا تخف في الله لومة لائم.

واحذر فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق الله فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق الله يقه. واعمل لأجل مفضوض، وسبيل مسلوك، وطريق مأخوذ، وعمل محفوظ، ومنهل مورود؛ فإن ذلك المورد الحق والموقف الأعظم الذي تطير فيه القلوب، وتنقطع فيه الحجج لعزة ملك قهرهم جبروته، والخلق له داخرون بين يديه ينتظرون قضاءه، ويخافون عقوبته وكأن ذلك قد كان. فكفى بالحسرة والندامة يومئذ في ذلك الموقف العظيم لمن علم ولم يعمل، يومٌ تزل فيه الأقدام، وتتغير فيه الألوان، ويطول فيه القيام، ويشتد فيه الحساب. يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا

تَعُدُّونَ} [الحج: ٤٧]، وقال تعالى:{هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾} [المرسلات: ٣٨]، وقال تعالى:{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾} [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى:{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ} [الأحقاف: ٣٥]، وقال:{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾} [النازعات: ٤٦]، فيالها من عثرة لا تُقال، ويالها من ندامة لا تنفع، وإنما هو اختلاف الليل والنهار: يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، ويجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب. فالله الله فإن البقاء قليل والخطب خطير والدنيا هالكة وهالك من فيها، والآخرة هي دار القرار. فلا تلق الله غداً وأنت سالك سبيل المعتدين، فإن ديان يوم الدين إنما يدين العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنازلهم. وقد حذرك الله فاحذر، فإنك لم تخلق عبثاً، ولن تترك سدى. وإن الله سائلك عما أنت فيه وعما عملت به، فانظر ما الجواب؟!

واعلم أنه لن تزول غداً قدما عبد بين يدي الله تبارك وتعالى إلا من بعد المسألة فقد قال ﷺ:«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن علمه ما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيما أبلاه»، فأعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، فإن ما عملت فأثبتٌ فهو عليك غدا يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد. وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله. فإنك إن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى، وتعمى في عينك وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبه، وتنكر منه ما تعرف، وتعرف منه ما تنكر، فخاصم نفسك خصومة من يريد

الفلَج لها لا عليها، فإن الراعي المضيع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء رده عن أماكن الهلكة بإذن الله، وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإذا ترك ذلك أضاعه وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه أضر، وإذا أصلح كان أسعد من هنالك بذلك، ووفاه الله أضعاف ما وفى له.

فاحذر أن تضيع رعيتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم. وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاك الله أمره، وعليك ما ضيعت منه، فلا تنس القيام بأمر من ولاك الله أمره فلست تُنسى. ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفل عنك. ولا يضيع حظك، من الدنيا في هذه الأيام والليالي، من كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر الله تسبيحاً وتهليلاً وتحميداً، والصلاة على رسوله نبي الرحمة وإمام الهدى ﷺ. وإن الله بمنه ورحمته جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليهم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم. وإضاءة نور ولاة الأمر إقامة الحدود، ورد الحقوق إلى أهلها بالتثبت والأمر البين. وإحياء السنن التي سنها القوم الصالحون أعظم موقعاً، فإن أحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت. وجور الراعي هلاك الرعية، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة. فاستتمَّ ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن مجاورتها، والتمس الزيادة بالشكر عليها، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز: {لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]. وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح، ولا أبغض إليه من الفساد، والعملُ بالمعاصي كفر النعم. وقلَّ من كفر قوم قط النعمة ثم لم يفزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم،

وسلط الله عليهم عدوهم. وإني أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي منَّ عليك بمعرفته فيما أولاك أن لا يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك، وأن يتولى منك ما تولى من أوليائه وأحبائه؛ فإنه ولىُّ ذلك والمرغوب إليه فيه.

وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحته وبينته، فتفقهْهُ وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلُك والمسلمين نصحاً ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه. وإني لأرجو - إن عملتَ بما فيه من البيان - أن يوفر الله لك خراجك من غير ظلم مسلم ولا معاهَد، ويصلح لك رعيتك فإن صلاحهم بإقامة الحدود عليهم، ورفع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم، وكتبت لك أحاديث حسنة، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه، مما تريد العمل به إن شاء الله. فوفقك الله لما يرضيه عنك، وأصلح بك، وعلى يديك.

أخبر عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدثنا أبي قال: سمعت أبا يوسف القاضي يقول: إن للعيون خبايا بالغدوات ما ليس لها بالعشيات، فقلت له: يا أبت، أليس ذكرت أنك لا تروي عن أبي يوسف؟ فقال: هذه حكمة يأخذها العبد عن كل من وجدها عنده[1].

* * *

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص١١٨، ٣٥٦.